— Ne soyez pas mecnant
— Méchant ?
Pauvre
moquez pas d'elle.
pas.
ille, très en cha
الذكرى

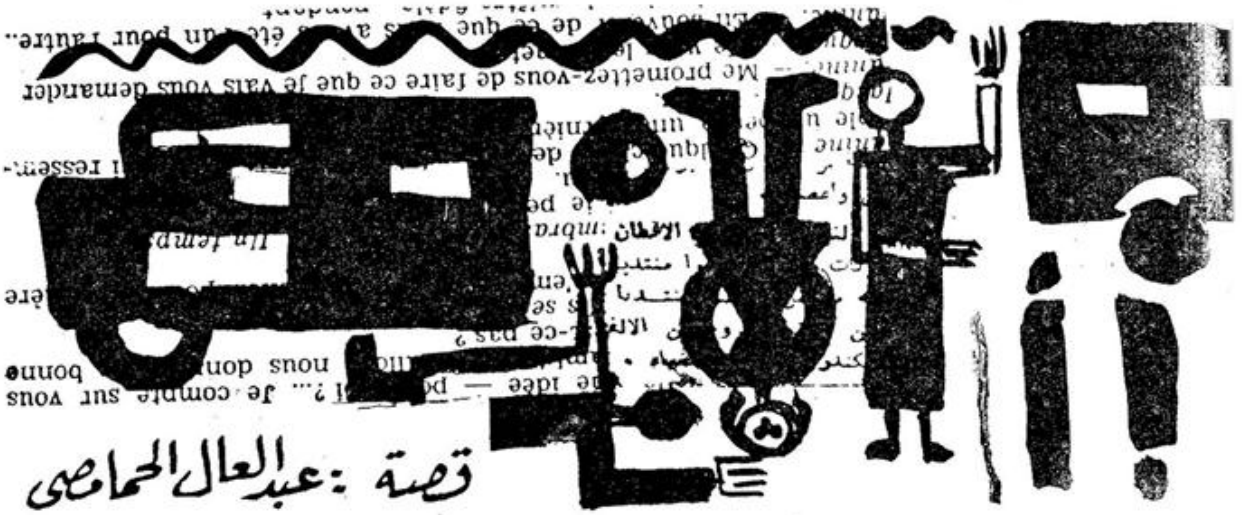

قصة : عبد العال الحماصى

يدى تقرع الباب ومفاصلى سائبة ٠ لا أحد يرد ٠ لا يجيبنى من الداخل غير الصمت ٠ القلق يسود أعصابى ٠٠ ودقات يدى تتوالى ملتاثة ٠ ولا شىء غير الصمت ! هواجس مكروبة تراودنى وان كنت لم أفقدالأمل تماما فى وجوده ٠٠ اليوم الجمعة ٠ أجازة ٠ ربما يكون ثقيل النـوم ٠ ! وتزايدت دقات يدى عنفا ٠٠ لم أكف الا عندما خرجت المرأة البدينة من الغرفة المجاورة تحمل فوق صدرها رضيعا يمتص ثديها من فتحة جانبية فى ثوبها ٠ نظراتها تقذف شواظ الغضب وهى تخاطبنى بلهجة حانقة ٠

ـ « لك ساعة تقرع الباب يا أستاذ ٠٠ لو كان بالداخل أموات لقاموا ٠٠ محمود جاءته برقية من الصعيد ٠ وخرج مبكرا ٠ مات عمه »

غامت الدنيـا أمامى ٠٠ مات عمه ! رددتها مذهولا ٠٠ كيف أيتها البومة ٠ ابعدى نظراتك عنى ٠٠ ابعديهـا ٠ سأخرج ٠ واتجهت نحو البـاب وأنا أشعر بنظراتها تخرق ظهرى ٠٠ دوامة من المشاعر اللاهثة تمور فى داخلى ٠ تفكيرى عاجز عن الامسـاك بأى خيط يوصـلنى لمعالجة المشكلة ٠٠ البلادة ترين فوق ذهنى ٠ لا شىء غير الاحساس بالضياع ٠٠ منك لله يا أبى ٠ منك لله ٠ كيف طاوعك ضميرك على أن تتزوج فى شـيخوختك لتنجب للعالم كتاكيت ٠٠ يقعدك عجز الشيخوخة قبل أن تصنع لها أجنحة !

ماذا أفعل الآن ؟ الاعيـاء يسرى فى كيانى ٠ لا أستطيع المسير ٠ لا أستطيع نضبت كل حيوية فى جسدى ٠٠ خطواتى المجهدة أدفعها بعذاب ٠ وبين كل خطوة والأخرى يوشك قلبى أن يصمت نبضه عندما وصلت « **ميدان الجيزة** » كنت قد استهلكت كل قواى ٠٠ لا قدرة لى على دفع خطواتى ٠٠ لا بد أن أركب عربة ٠٠ لا بـد ٠ ولكن من أين لى ثـمن التذكرة ؟! لماذا اليوم بالذات يموت عمك يا محمود ؟!

وصاحب اللوكاندة ·· كيف سأواجه صفاقة تهـــديده ·· الحمد لله · وجدت فكرة · تذكرت اليوم الجمعة «الصعايدة» يصلونها غالبا فى مسجد الحسين ·· لن أعدم هناك بعض أبناء بلدتى · قطعا ستدفعهم نخوتهم لاقراضى نقودا أسدد بها حساب اللوكاندة · وابتاع تذكرة أعود بها الى مدينتى ·· لن أمكث هنـا أبدا ·· خدعت فى القاهرة ·· خـاب أملى ·· انها مدينة مات قلبها ·· قد تكون بلدتى الصغيرة كئيبة بأحزانهـــا وتعاستها · ولكن قلوب الناس فيهـــا تنبض بعواطف المحبة تملك أن تعطى حرارة المشـــاركة لا يشـــعر الانســـان فيها بصقيع الوحدة · هنا أشعر بأنى مجرد حشرة ·· سأعود الى مدينتى ·· المهم أن أركب الآن.. وخطرت لى من خـــلال الاعياء فكرة .. سأنتقى عربة مزدحمـــة بالـــركاب حتى اتـــمكن من « الزوغان » بينهم ·· لا بد أن أصـــل قبل خروج الصلاة !

لا بد أن أصل قبل خروج الصلاة !

عديد العربات العـــامة مرت أمامى · وأنا أقاوم ترددى · وأحاول اسكات عواء ضميرى · ستكون فضيحة · لو اكتشف الكمسارى فعلتى ·· وتحاملت على نفسى أحاول المسير ولكنى توقفت من جديد أسند قلبى ·· لا جدوى · دست على كل الاعتبارات ثم دلفت داخل احـــدى العربات من باب الدرجة الاولى ·· لم أكن « فقريا وابن حظ » ! الكمسارى يقف بقرب باب الدرجة الثانية · يقطع تذاكر ركاب المؤخرة ·· وتواريت خلف أكتاف الركاب وأنا أنقـــل خطواتى الى الدرجة الثانية ·· ليس فى هيئتى ما يجعلنى أجسر على الوقوف بالدرجـــة الأولى ·· ربما يرتاب الكمســـارى فى أمرى ·· انحشرت بين الواقفين الذين يكتظ بهم ممر « الدرجة الثانية » · بعد أن تأكدت من وجود التذاكر بين أصابع الذين وقفت بجوارهم !

وأخذ الكمســـارى ينقل خطواته بين الأجساد المتلاصقة الى أن وصل عندى وهو « ينقر » بقلمه فوق خشبة التذاكر ويردد كلمـــاته الروتينية « **تذاكر ···** يا حضرات .. تذاكر » واتخذت وضع من لا تعنيه الكلمـــات · ودقات قلبى تتعالى مهبولة بالخوف · ومن خلف ظهرى جاءتنى كلماته بعد أن نقر بالقلم فوق الخشبة « **السيد ·· خلاص ·· هنـا ؟** أحسست بنقرته فوق قلبى ! لا أدرى كيف سيطرت على أعصابى · وان كنت لم أستطع التفوه بالاجابة مباشرة ·· مكتفيا بايماءة من رأسى تعنى الموافقة · ثم اســـتدرت عنه سريعا حتى لا يقرأ الكذب فى نظراتى !

وزحف الى الدرجة الأولى ·· الحمـــد لله · ها قد انتهيت من الكمســـارى · قرأت الفاتحة للحسين ·· والســـيدة زينب · وكذلك الشيخ القرنى ولى الله فى بلدتنا ! بقيت مســـألة المفتش ·· بسيطة يمكن التغلب عليها ·· المفتش يدخل غالبا من باب الدرجة الأولى ·· عندما أراه سأبادر بالهبوط ·· وظلت نظراتى من بين أكتاب الركاب عالقـــة بمدخل الدرجة الأولى أترصد دخـــول ســـيادته عند كل محطة تقف العربـــة بها !!

لا زال ضميرى يعوى · لا يريد أن يخـــرس · لمجـــرد خطيئة صغيرة ·· للضرورة أحكامها !

ولبثت أحاول أن أتخلص من عوائه · ومن كل المشاعر المتشابكة التى تجرفنى بشأن أزمتى حتى أركز كل حواسى فى

الانتباه لحركة الدخول فى الدرجة الأولى ·· رغم هذا كنت أتوه بلا وعى لأجد دوامة الأزمة قد جرفتنى !

بالأمس كانت نقودى قد نفذت تماما وخرجت الى الشارع بدون كوب الشاى بالحليب الذى تعودت أن أغير به ريقى كل صباح ·· بعد أن هددنى صاحب « **لوكاندة المنتزة الحسينى** » بأن يقذف بى الى الشارع اذا لم أبادر بدفع حسابه طرفى ·· أقسم بمقام الحسين أن يسلمنى للبوليس اذا لم تف ملابسى بحسابه .. فليست لوكاندته مأوى لكل صعلوك متشرد يقذف به الى المدينة قرف الصعيد · خرجت والدنيا أمامى يكتنفها الضباب ·· أعرف أن الرجل لن يتردد فى تنفيذ وعيده ·· ليس هناك ما يمنعه من أن يفعل ·· بعد الأسابيع التى قضيتها فى هذه المدينة لن أستغرب أى تصرف يحدث فيها ·· رأيت بعينى رجلا رفض أن يتخلى عن صحيفته لتغطى بها عورة جثة !!

وفى ميدان الأزهر قابلت محمود عبد الحق · الطالب بكلية الحقوق جارنا وزميلى فى مدرسة أخميم الابتدائية ·· كنت وقتها الغريق · وكان هو القشة ! ··

ما أن تصافحنا وتعانقنا · وسألنى عن سبب مجيئى من الصعيد حتى انطلقت أحكى له القصة بحذافيرها · جئت لأبحث عن عمل هنا · استغنت « دائرة شيرين » عن خدمات أبى بعد ماتدهورت صحته نهائيا · وهذا ما جعلنى انقطع عن مواصلة تعليمى لأعطى الفرصة لبقية اخوتى ·· لم أجد فى الصعيد عملا · فاعطانى عضو مجلس الشيوخ عن مدينتنا خطاب توصية لقريب له صاحب نفوذ هنا ليجد لى عملا فى واحدة من الشركات التى يهيمن عيلها ·· ومضت ستة أسابيع وأنا أتردد على مكتب صاحب النفوذ ·· فى كل مرة أقف أمامه متخاذلا مستكينا الى أن ينتهى من مكالماته « **التليفونية** » المتواصلة ·· وعندما يتنبه الى وجودى أمامه يبتدرنى بالعبارات التى تعودت سماعها فى كل مرة ·· « **هأنت ذا ترى فرط انشغالى ·· لكنى مازلت مهتما بموضوعك ·· حاول أن تمر على بعد أسبوع ! » حتى تبخر تماما** كل ما استدانته لى أمى من أبناء وبنات الحلال ·· وليس لى أقرباء هنا ! وأبدى محمود تأثره لكل هذا ·· ثم أعرب عن أسفه لكونه لا يستطيع الآن معاونتى · لأنه لا يحمل نقودا تزيد كثيرا عن نفقات المواصلات ·· وأدخل يده فى جيبه وأخرجها ببضعة قروش احتجز منها أجرة العودة وأعطانى الأربعة قروش المتبقية · وعنوانه فى « الجيزة » لأذهب اليه صباحا عساه يستطيع أن يدبر لى نقودا الى أن تصلنى المعونة التى طلبتها بخطاب من أمى ·· ثم صافحنى بحرارة وركب الترام !

وتعشيت بقرشين · وشربت كوبا من الشاى بقرش واستبقيت قرشا لأركب به الترام صباحا من العتبة «الى الجيزة» . وها قد مات عمه ·· ! منك لله يا أبى ·· لماذا أنجبتنى للعالم ·· أية ضرورة دعتك لأن تفعل ! والرجل صاحب النفوذ ·· آخر مرة · تمنيت بعذاب غيظى أن افقأ « كرشه » الممتد لعدة أمتار أمامه ! · مشغول · وأنا ·· هل قيل له أننى حجزت جناحا لسيادتى فى « شبرد » ؟ ما شأن صاحب لوكاندة المنتزة الحسينى بانشغالك ·· ومحمود عبد الحق ·· أكان من الحتم أن يموت

عمه • اليوم بالذات • ماذا أفعل لو فشلت فى العثور على ناس من بلدى بعد صلاة الجمعة ؟!

كان هذا السؤال مختلطا بدوامة الأزمة قد سيطر على كل وجودى . حتى أننى نسيت مدخل الدرجة الاولى. بل نسيت أننى فى عربة تماما • الى أن فوجئت بالمفتش أمامى وجها لوجه !

عندما مد لى يده ليفحص التذكرة تمنيت لو أن تنشق الأرض وتبتلعنى. ولم تنشق الأرض . بينما يد المفتش مازالت ممتدة نحوى !

كنت رئيسا لفريق التمثيل فى المدرسة الثانوية • فاستنجدت بخبرتى •• بسرعة اندفعت يدى تقلب جيوبى بحثا عن التذكرة الوهمية •• وأنا اتصنع الدهشة • ونظراتى تخترق الأرض بحثا عنها. ونظرات المفتش التى نفذ صبرها مسلطة على • ناطقة بالريبة • وتوشك أن تلفظ الاتهام !

قلت ويدى تعبث بكل جيوبى وأنا أتحاشى نظراته •

« يبدو أن التذكرة •• ضاعت ! ومن جديد اندفعت نظراتى تتجول بين أقدام الركاب •• هـا قد وقع المحظور •• انطلق ضميرى يعوى •• وقع المحظور • حاولت أن أعود ماشيا •• لم أستطع• كنت سألفظ روحى قبل أن أصل • وربما تدهمنى عربة • وتتركنى أتخبط فى دمائى على قارعة الطريق • أموت قتيلا فى مدينة لن يهتم ناسها حتى بأن يضعوا جثتى تحت جدار •• سيلقى كل عابر نظرة . ثم يواصل مسيره .. رأيت هذا المنظر عدة مرات • منذ أيام رفض أحد المارة أن يعطى الصحيفة

التى بيده لامرأة طلبتها منه لتغطى بها جثة بائع الحلوى العجوز الذى صرعته عربة الترام فى ميدان الأزهر ·· لو عدت ماشيا ما كنت سألحق خروج صلاة الجمعة ·· !

ابعد نظراتك يا سيدى المفتش ·· انها تعرينى من ثيابى ·· تعذب آدميتى ابعدها !

ـ « **أهى « ابرة » يا أستاذ ·· كفى** تمثيلا ! « ثم أردف يخاطب الكمسارى »

ـ « **شوف المحترم يا على ·· اعط له تذكرة** · « قالها مفعمة بالاحتقـــار ومتضمنة تأنيبا للكمســـارى فى نفس الوقت · ثم انتقل الى غيرى وهو يغمغم بكلمات عاقتنى الدوامة عن سماعها ·

وتفصد العرق من جبينى « كبرميل» زيت تخترقه الثقوب فى هجير الشمس والخجل يسحقنى وكل النظرات كأنها فوهات بنادق مصوبة نحوى · لم ارتكب جريمة أيها الناس · « **دائرة شـــيرين** » فصلت أبى ·· مريض أنا ولا نقود معى ·· لا بد أن أصل الحسين قبل خروج الصـــــلاة لماذا كل هذا الاحتقـار فى عيونكم لى ؟!

وجاء الكمسارى يقيسنى طولاوعرضا بنظراته الشامتة وهو يثقب بكلمـاته مشاعرى :

ـ « **يا ناس ·· حرام عليكم · لحسن ورانا عيالنـــا ·· ألا يكفينا غلبنا طول اليوم ·· هات · يا أستاذ · هات !** » ·

وراءك عيال ·· أعرف ولكن لماذا كل

هـذه الضـفينة فى نظراتك . كأنمـا أمسكت بقاتل أبيك · أخرس الارتباك لسانى · ورأسى منكس الى الأرض حتى لا أواجه نظراته وعيـون الركاب التى تنتظر النتيجة فى شراهة الفضول ! ·· من جديد امتدت يدى تفتش كل جيوبى ثم أخرجتها خاوية · ترتعش ··الكلمات تبكى فى حلقى ·

ـ « بشرفى قطعت تذكرة ·· لكن أين راحت ·· لا أدرى · سقطت منى· ربما بين الزحام » ·

وعادت نظراتى تتلفت تحت المقاعد وبين أقدام الركاب · بدون أن أجـد حتى تذكرة قديمة ! ·

الرجل مازال واقفا أمامى يحـدق فى بنظرات متحـدية .. أخـيرا نفـذ صبره ·· » « **خلصـنا يا حضرة** » · عيون الناس كلهـا متجهة نحوى .. وفتاة صغيرة تهمس فى أذن السـيدة الجالسة بجوارها نظرات الرثاء فى عينيها تمزق كبـدى ·· وجدت الكلمـات بصعوبة ·

ـ « يبدو أننى نسيت حافظتى فى البيت ·· انزلنى لو سمحت » ما أن قلتها حتى تلقفتها قهقهة الكمسـارى صاخبة عربيدة ترج قلبى ·

ـ « أهلا ·· وسلا · نسيت الحافظة فى البيت · وبها « دفتر الشيكات » طبعا هـدىء يا أسطى ابراهيم لينزل الأستاذ بسلامته ·· عربته الخاصـة وصلت ! « أفندية » آخر زمن · جاكم القرف ·· الى البـاب يا أسـتاذ قدامى !! ··

وجذبنى من ياقة القميص يسـوقنى تجاه الباب ·· وتناهى الى صوت أحد ركـاب الدرجـة الاولى ورائى ·· « نشـال ركب يخرب بيوت الناس ! ». لم أسمع بقية التعليقات . فقد دفعنى الكمسارى الى الخارج متكفئا على وجهى قبـل أن تتوقف العربة تمـاما .. ونهضت أنفض التراب عن ثيابى والاعياء يشدنى نحو الأرض من جديد ·· الدنيا تسود أمامى ·· قلبى · قوة ما تستله · تهرسه ·· الدنيا تدور ·· دماغى تدور أمى ·· أبى ·· الصعيد · صـاحب اللوكانـدة ·· محمـود عبد الحق ·· التذكرة ·· دائرة شـيرين باشا ·· المرئيات تختلط أمامى ·· تتداخل فى بعضها ·· وأنا أزحف بخور واعيـاء نحو الجدار القريب لأسـتند عليه ·· ريثما أسترد أنفاسى !! ·

عبد العال الحمامصى

نقد: د. محمد غنيمي هلال